المقدمـــة

أقوم فى هذا الكتاب بدراسة شخصية المضحك عند العرب، من خلال تعريف هذه الشخصية، وذكر دورها فى حياة الناس، وأثرها على الأدب بوجه خاص.

وقد تتبعت هذه الشخصية عند العرب منذ العصر الجاهلى حتى نهاية حكم المتوكل، ذاكرًا أنواع هذه الشخصية ما بين مضحك الخليفة ومضحك العامة، وذكرت أنواعًا أخرى من المضحكين مثل المتحامقين والحمقى والمخنثين.

وقد ترجمت فى الهوامش لهؤلاء المضحكين، وذكرت وسائلهم فى الإضحاك، مستشهدًا خلال ذلك بنوادرهم وحكاياتهم الطريفة.

وأظن أن هذه الدراسة – بهذا الشكل – جديدة غير مسبوقة، وهذا لا يمنع من أنه قد سبقتنى دراسات عديدة تدرس الفكاهة فى التراث العربى وأنواع الفنون الفكاهية فى ذلك التراث.

وبالطبع قد أفدت من كل هذه الدراسات، ولكنها – مع ذلك – بعيدة – إلى حد كبير – عن الموضوع الذى أدرسه هنا، وهو شخصية المضحك عند العرب حتى نهاية حكم المتوكل، "دراسة فنية"

وقد جاء هذا الكتاب فى تمهيد وثلاثة فصول.

أما التمهيد فقد عرفت فيه شخصية المضحك، وذكرت أثرها على حياة الناس قديمًا، وأثرها بوجه خاص على الأدب شعره ونثره.

وكان الفصل الأول حول تتبُّع ظاهرة المضحك تاريخيًّا عند العرب حتى نهاية حكم المتوكل. وتحدثت فى الفصل الثانى عن أنواع المضحكين، ثم كان الفصل الثالث عن صفات المضحك ووسائله فى الإضحاك.

وبعد ذلك ذكرت الخاتمة التى فيها أهم النتائج التى توصلت إليها فى هذه الدراسة.

وختمت الكتاب بذكر المصادر والمراجع التى استعنت بها فى هذه الدراسة.

وأرجو أن أكون موفَّقًا فى هذا الكتاب، وأن ينال قبول القراء.

التمهيـــــد

أسباب اختيار الموضوع

أظن أن شخصية المضحك موجودة فى كل عصر وفى كل بيئة، ولكنها تتلون بثقافة البيئة التى تعيش فيها، وتستخدم وسائل الإضحاك الملائمة لها. ولا يوجد بشر لا يحتاجون لأولئك الأشخاص الذين يمتلكون مواهب فى إضحاك غيرهم، ومن ثم كان وجود هؤلاء المضحكين ضروريًّا من أجل إمتاع الناس والتخفيف عن آلامهم بفكاهاتهم.

وقد وجدت شخصية المضحك بأنواعها المختلفة كمضحك الخليفة ومضحك عامة الناس والمضحك المخنث والمضحك الأحمق والمضحك المتحامق وغير ذلك عند العرب، ولعل العرب قد عرفوا أنواعًا قليلة من شخصية المضحك فى العصر الجاهلى وعصر صدر الإسلام، ولكنهم عرفوا أنواع المضحك المختلفة فى العصر الأموى، والعصر العباسى – على وجه الخصوص – لتأثرهم بالأمم الأجنبية، لا سيما الفرس، الذين عرفوا هذه الشخصية؛ لأنها تتواجد بكثرة – قديمًا – فى البيئات المتحضرة، فهو شخص مطلوب لدى خاصة الناس وعامتهم فى الوقت نفسه، لما يقوم به من إمتاع وتسلية لهم.

ولم أقع على دراسة تتبعت هذه الشخصية[1] منذ العصر الجاهلى حتى العصر العباسى الذى نضجت فيه هذه الشخصية وكثرت أنواعها، وتعددت وسائلها فى إضحاك الناس.

---

(١) ولعل أقرب الدراسات لدراستى هى دراسة جمال محمد سرحان وعنوانها: "المسامرة والمنادمة عند العرب حتى القرن الرابع الهجرى" . وهى رسالة مقدمة إلى دائرة اللغة العربية ولغات الشرق الأدنى فى الجامعة الأمريكية فى بيروت لنيل درجة أستاذ فى الآداب، سنة ١٩٧٨م.=

ولهذا قمت بهذه الدراسة متتبعًا فيها – بشكل خاص – ظاهرة المضحك عند العرب منذ العصر الجاهلى حتى نهاية حكم المتوكل.

واكتفيت بالدراسة لهذه الشخصية حتى نهاية حكم المتوكل؛ لأنه مع نهاية حكم المتوكل ينتهى عصر الخلفاء الأقوياء فى الدولة العباسية وعصر نفوذ الفرس،ويبدأ بعده عصور من الضعف للدولة العباسية، وسيادة للأتراك وغيرهم على الدولة العباسية.

وكانت شخصية المضحك بارزة فى عصر قوة الخلفاء العباسيين، ولكنها اضمحلت – إلى حد كبير – مع ضعف الدولة العباسية؛ ولعل ازدهارها مع قوة الدولة العباسية يعود لتقريب كثير من الخلفاء العباسيين لهؤلاء المضحكين – أو لبعضهم – وإجازتهم على فكاهاتهم، لا سيما الرشيد والمتوكل.

وأقوم فى هذه الدراسة بتتبع أنواع المضحكين ووسائلهم فى إضحاك الناس، ومقارنة هذه الوسائل بوسائل الكوميديا المعروفة الآن فى عصرنا.

=ويحمد لهذه الدراسة أنها من الدراسات المبكرة التى تناولت شخصية المسامر وأثرها فى الأدب، ومع ذلك فلم يتحدث الباحث عن شخصية المضحك إلا فى مساحات قليلة من دراسته وركز الحديث عن مسامرى الخلفاء من المحدثين والوعاظ والمنادمين ممن يشاركون الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة شرب النبيذ وغيره من المشروبات.

ولعل الفصل الثالث من كتابه فيه مساحة أكبر نوعًا ما عن دور المسامر الترفيهى، ومع ذلك لم يتحدث الباحث عن هذا المسامر الترفيهى –أى المضحك – إلا فى صفحات قليلة وبإشارات سريعة، ولم يدرس ما أدرسه هنا فى هذه الدراسة من أنواع هؤلاء المضحكين، ووسائلهم المختلفة فى إضحاك الناس، وأثرهم على المجتمع الذى عاشوا فيه، ثم أثرهم الكبير على الأدب شعره ونثره.

ومن ثم تعدُّ هذه الدراسة رائدة فى مجالها، ولكنها لم تتحدث عن المضحك إلا بإشارات مختصرة، ولم توضح دوره بشكل كافٍ كما أحاول فعله فى دراستى هنا.

كذلك أشرت إشارات كثيرة فى هذه الدراسة لأثر هؤلاء المضحكين على حياة الناس فى نقد سلوكياتهم وأحوالهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وكذلك تحدثت عن أثر هؤلاء المضحكين على الأدب شعره ونثره، وما قدموه من تجديد فى أشكال الأدب وموضوعاته.

منهج الدراسة

استخدمت فى هذه الدراسة المنهج الفنى الذى يهتم بتحليل النصوص واستخراج الجماليات المتعدّدة التى بها، وفى الوقت نفسه يستفيد من منجزات المناهج الأخرى كالمنهج التاريخى والمنهج النفسى.

تعريف المضحك

المضحك هو الذى يقوم بإضحاك الناس وتسليتهم وإمتاعهم بأقواله وأفعاله، وباستخدام تكوينه الجسمانى لا سيما ملامح وجهه.

وهو بالأساس شخص موهوب فى إضحاك الناس؛ ولكنه لكى يتقن موهبته فى إضحاك الناس ينمّى موهبته تلك بالتعرف على أخبار المضحكين السابقين وحكاياتهم المضحكة، ويدرس وسائلهم فى الإضحاك، وينظر إلى الذى يتناسب منها مع موهبته فى الإضحاك، وقدرته فى تسلية الناس.

ولا أدعى أن كل المضحكين فعلوا هذا، بل بعضهم فعله، والبعض الآخر اتكأ بشكل قوى على موهبته فى إضحاك الناس، وما فيها من جوانب تفرده عن غيره من المضحكين.

ولا يستخدم كل المضحكين وسائل متشابهة لإضحاك الناس، فأكثرهم يستخدمون وسائل متشابهة، وينفرد بعضهم بأساليب تخصهم فى إضحاك الناس.

والمضحكون بطبيعتهم يتصفون بالظرف والقدرة العالية على الإضحاك، والتمكن من التمثيل، وتقديم التعليق الساخر فى حينه، ومع ذلك فلم تكن الجرأة صفة مشتركة بينهم جميعًا، بل منهم من اتصف بالجرأة الشديدة كأبى دلامة[1] وأبى العيناء[2]، ومنهم من استخدم المداراة، ومنهم من كان يفضل عدم التصريح بآراء يمكن أن تسبب له بعض المتاعب.

---

(١) أبو دلامة: هو زَنْد بن الجَوْن كان مولى لبنى أسد، وهو أسود البشرة، من الكوفة، وتاريخ ميلاده مجهول، ولكن بالنظر لبعض أخباره يظن أنه قد ولد فى أواخر القرن الهجرى الأول، وقد أدرك بنى أمية، ولم يكن له فى أيامهم نباهة، ونبغ فى أيام العباسيين، وانقطع للخلفاء العباسيين الأوائل السفاح والمنصور والمهدى، وكان مضحكًا لهم، يؤنسهم بنوادره وشعره الفكه، وكانت وفاته سنة ١٦١هـ. انظر عنه: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان حققه: د. إحسان عباس. بيروت، دار صادر، ٣٢٠/٢، والذهبى: سير أعلام النبلاء. أشرف على. تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه: شعيب الأرنؤوط، أشرف على تحقيق الجزء الثامن: على أبو زيد. بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ٣٤٧/٨، وابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب. بيروت، دار المسيرة، ط٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ٢٤٩/١، وياقوت الحموى: معجم الأدباء"إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب" تحقيق: د. إحسان عباس. بيروت، دار الغرب الإسلامى، ط١، ١٩٩٣م، ١٣٢٧/٣.

(٢) أبو العيناء: هو محمد بن القاسم بن خلاَّد بن ياسر الهاشمى، بالولاء، وهو أديب فصيح، من ظرفاء العالم، ومن أسرع الناس جوابًا، اشتهر بنوادره ولطائفه، وكان ذكيًّا جدًّا، حسن الشعر، مليح الكتابة والترسل، خبيث اللسان فى سب الناس والتعريض بهم، ومنشأه ووفاته فى البصرة، وقد ولد تقريبًا سنة ١٩١هـ، وكانت وفاته سنة ٢٨٣هـ. انظر: خير الدين الزركلى: الأعلام. قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. بيروت، دار العلم للملايين، ط١٥، أيار، مايو، ٢٠٠٢م، ٣٣٤/٦.

ومن المضحكين من كان يستخدم التشوه الذى فيه أو العيب الخَلْقى الذى به وسيلة للإضحاك كأبى دلامة، ومنهم من كان يحب أن يكون موقرًا، لا يناله أحد بالذم فى عيبه أو عاهته كأبى العيناء.

وهكذا كان لبعض المضحكين صفات ووسائل فى الإضحاك تفردوا بها عن غيرهم من المضحكين.

أثر شخصية المضحك فى حياة الناس

كان للمضحك فى العصور القديمة – لا سيما فى العصرين الأموى والعباسى – دور مهم جدًّا، فهو بديل لوسائل الترفيه التى نعرفها اليوم كالمسرح والتلفاز، وكان يقوم بتسلية الناس وإمتاعهم، بل لعله – بفكاهاته ونقده السياسى والاجتماعى بما فيه من جرأة – كان ينفس عن الناس ويخفف من إحساسهم بوطأة المتاعب الاقتصادية والاجتماعية التى عاشوها وقتذاك.

وكان له دور فى إنعاش نفوس الناس، والمحافظة على صحتهم النفسية[1] وتخفيف آلامهم الجسمية والنفسية، والقفز فوق متاعبهم فى حياتهم اليومية[2]، ولو لساعات أو لدقائق.

---

(١) يقول الدكتور زكريا إبراهيم: إن الفكاهة تدفع عنا الألم، وهى أداة فعالة للمحافظة على صحتنا النفسية انظر: د. زكريا إبراهيم: مقال بعنوان لماذا نضحك؟ نشر بمجلة الهلال، العدد الثامن، السنة الرابعة والسبعون، أغسطس ١٩٦٦م، ص١١، ويقول الدكتور محمد عنانى: إن الإنسان عن طريق الضحك والبكاء يفرغ ما عنده من شحنة توتر. انظر: د. محمد عنانى: فن الكوميديا. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م، ص٤٨.

(٢) يقول الدكتور زكريا إبراهيم: وتبحث النفس فى الفكاهة عن منفذ للتنفيس عن آلامها، وتسعى عن طريق النكتة نحو التهرب من الواقع الذى كثيرًا ما يثقل كاهلها.=

وللمضحك دوره فى زجر الناس عن بعض عيوبهم الاجتماعية والأخلاقية، بسخريته منها[1].

أثر شخصية المضحك على الأدب

لا شك أن ظهور شخصية المضحك – بالشكل الذى نراه فى العصرين الأموى والعباسى – كان له أثر كبير على الأدب شعرًا ونثرًا.

فأثره على الشعر كان من خلال ظهور الشعر الفكاهى بما فيه من سخرية، ورسم كاريكاتيرى، ونظن أن أبا دلامة هو الذى حمل لواء الشعر الفكاهى فى العصر العباسى الأول، وهو الذى حول الهجاء من مجرد سب وشتم وهتك للأعراض إلى صور ساخرة ورسم كاريكاتيرى ضاحك ينال من خلاله من شخصية من ينتقده ويوجه إليه سهام سخريته.

ولم يكن غريبًا أن يكون تطوير فن الهجاء إلى فن الكاريكاتير على يد أحد المضحكين الشعراء – ألا وهو أبو دلامة – فهو أعلم بوسائل الإضحاك من غيره من الشعراء، ويمكنه بقدراته الإضحاكية العالية –

=انظر: د. زكريا إبراهيم: سيكلوجية الفكاهة والضحك. القاهرة، مكتبة مصر، د. ت، ص٩.

(١) يقول برجسون: "فالضحك تأديب قبل كل شىء". انظر: هنرى برجسون: الضحك "البحث فى دلالة الضحك". ترجمة: سامى الدروبى وعبد الله عبد الدايم. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م، ص١٢٦، ويقول أيضًا: إن الضحك وسيلة تصحيح قبل كل شىء، ويرد على العيوب بالسخرية منها. انظر: الضحك، ص١٢٥، ويقول آلاردیس نيكول: "الضحك هو فى جوهره عقوبة للمجتمع، تقع على بعض النماذج والطبقات المنحرفة". انظر: آلاردیس نيكول: علم المسرحية، ترجمة: درينى خشبة. القاهرة، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، د. ت، ص٢٧٣، ويقول د. نبيل راغب: "إذا ضحك الناس وسخروا من شىء، فلا يمكن أن يعودوا إلى إتيانه مرة أخرى". انظر: د. نبيل راغب: فن التأليف الروائى. القاهرة، مكتبة نهضة مصر، دار مصر للطباعة، ١٩٩٠م، ص٦٤.

التى أشار إليها القدماء والمحدثون[1] – أن يفجر الفكاهة فى شعره، وأن يغير مسار الهجاء إلى فن جديد على العصر العباسى الأول هو فن الكاريكاتير الشعرى[2].

ويوضح لنا الدكتور محمد مصطفى هدارة أهم ملامح الكاريكاتير كما ظهر من بعض الشعراء فى القرن الثانى الهجرى – لاسيما أبو دلامة – بقوله: "من الواضح أن هذا الهجاء الكاريكاتيرى الساخر يعتمد على التصوير لا على اللفظ، وعلى التجسيم والمقارنة لا السب والشتم والمهاترة"[3].

---

(١) ولعل الجاحظ أن يكون أقدم من أشار إلى القدرة العالية على الإضحاك التى لدى أبى دلامة والتى تتجلى فى شعر الفكاهى. انظر: أبا الفرج الأصفهانى: الأغانى، وزارة الثقافة والإرشاد القومى. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصور عن مطبعة دار الكتب، ٢٣٧/١٠، كما أدرك هذه الصفة فيه بعض معاصريه. انظر: الأغانى، ٢٥٥/١٠، ويقول الدكتور عبده بدوى: إن أبا دلامة "قد أخذ على عاتقه أن يملأ الحياة من حوله بالبهجة، والسخرية والدعابة، وأن يتصل بالطبقة الحاكمة رجالاً ونساءً ليضاحكهم". انظر: د. عبده بدوى: الشعراء السود وخصائصهم فى الشعر العربى. القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١م، ص١٥٩، وانظر أيضًا: كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربى. ترجمة: د. عبد الحليم النجار. القاهرة، دار المعارف، ط٥، ١٩٨٣م، ١٨/٢.

(٢) يقول توفيق الحكيم: "وهكذا زاول العرب فن "الكاريكاتور" شعرًا ونثرًا، حيث لم تتح لهم الظروف أن يزاولوه رسمًا ونقشًا. كل شىء خطر على بال عبقريتهم. إنهم ليعوضون دائمًا ما يفوتهم فى جانب، بالإجادة فى جانب آخر". انظر: توفيق الحكيم: فن الأدب. القاهرة، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، د. ت، ص٣٥.

ويفرق توفيق الحكيم بين الهجاء والكاريكاتير بقوله: إن فى كل كاريكاتير هجاء وليس فى كل هجاء كاريكاتير، ففى الهجاء تنال من خصمك بالحق وبالباطل دون أن تتعمد إضحاك الآخرين عليه، أما فى الكاريكاتير فتحاول بكل السبل السخرية من خصمك بتضخيم عيوبه الجسمية والسلوكية والنفسية بغرض إضحاك الناس عليه. انظر: توفيق الحكيم: فن الأدب، ص٣٤.

(٣) د. محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى. دار المعرفة الجامعية، د. ت، ص٤٦١.

وأضاف أبو دلامة للقصيدة العربية إلى جانب فن الكاريكاتير الحس القصصى، ففى كثير من قصائده ومقطوعاته نجد حسًّا قصصيًّا واضحًا[1].

أما عن أثر المضحكين على النثر فى العصر العباسى – على وجه الخصوص – فقد كان أثرًا كبيرًا جدًّا، ولعل أثرهم على النثر كان أهم من أثرهم على الشعر.

فقد كان أثرهم على النثر مؤثرًا ومتنوعًا، فهم ساعدوا على نمو النادرة والقصة الفكاهية، وذلك من خلال قيامهم بكثير من الأحداث التى تتضمنها النوادر والحكايات الفكاهية، ولعل الكثير منهم كان يروى هذه النوادر والقصص الفكاهية عن نفسه،– بالصدق أو بالكذب – ويضيف إليها لمحاته الفنية لتصبح نماذج أدبية مثيرة فى ترابطها وإمتاعها وإضحاكها.

وبعض المضحكين كانوا مشهورين بصناعة النادرة وتلقينها لمضحكين آخرين أو لعامة الناس ليضحكوا منها، فيقال: "كان أبو حبيب مضحك المهدى يحفظ نوادر مُزَبِّد[2] ويحكيها له فيصله. فقال له

---

(١) على سبيل المثال انظر: الحصرى القيروانى: جمع الجواهر فى الملح والنوادر. تحقيق: على محمد البجاوى. بيروت، دار الجيل، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص١١٢، وانظر: د. على محمد السيد خليفة، البنية الدرامية فى قصيدة أبى دلامة اللامية فى بغلته بحث منشور فى المؤتمر العلمى الدولى الثانى، معالم التلاقى بين علوم اللغة العربية والعلوم الإسلامية ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م. كلية اللغة العربية بالزقازيق، جامعة القاهرة، ٧١٣/١.

(٢) هو أبو إسحاق مُزَبِّد، وقد كانت نشأته فى المدينة، ثم بعد ذلك انتقل إلى العراق، وكان معاصرًا للخليفة المهدى كما يفهم من بعض أخباره، وله نوادر وحكايات طريفة كثيرة، وكان يضرب المثل بظرفه ونوادره. انظر عنه: ابن الجوزى: أخبار الظراف والمتماجنين. بعناية: بسَّام بن عبد=

مزبّد: بأبى أنت! أنا أزرع وأنت تحصد"[1].

ولعل النوادر والحكايات الفكاهية التى تروى عن هؤلاء المضحكين، وتصوِّر مواقفهم وتعرض تعليقاتهم أن تكون هى الأعلى فكاهة – بين النوادر والحكايات الفكاهية –، ليس هذا فقط لإضافتها لمضحكين بارزين، ولكن أيضًا لاشتمالها على عناصر فكاهة عالية، استطاع هؤلاء المضحكون أن ينسجوها بمواهبهم العالية فى تلك النوادر والحكايات المضحكة التى تنسب لهم.

وأيضًا نجد فى هذه النوادر والحكايات الفكاهية التى تنسب لهم إتقانًا عاليًا فى بنيتها، ولا شك أن هذا يعود لتمكنهم فى صنعتهم.

ولا ندَّعى أن هذا الأمر شائع فى كل ما نسب لهم من نوادر وحكايات طريفة، ولكنه هو الغالب عليها بمقارنتها بالنوادر والحكايات الطريفة التى تقال عن أشخاص لم يعرفوا بصناعة إضحاك الناس.

والجاحظ نفسه يعرفنا أن إضافة النادرة لشخص مشهور بالفكاهة يزيدها ملاحة وإضحاكًا. بخلاف لو أضيفت النادرة لشخص ثقيل الظل لفقدت الكثير من بريق الفكاهة منها، يقول الجاحظ فى ذلك: "ولو أن رجلاً ألزق نادرة بأبى الحارث جُمَّيْن والهيثم بن مطهر وبمزبد وابن أحمر، ثم كانت باردة لجرت على أحسن ما يكون، ولو ولَّد نادرة حارة فى نفسها

=الوهاب الجابى. بيروت، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، = ص١٠٤، ومعجم الأدباء، ٢١١٣/٥، والنويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب. مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م، ٢٤/٤ – ٢٥.

(١) جمع الجواهر، ص٣٧.

مليحة فى معناها ثم أضافها إلى صالح بن حنين وإلى ابن النواء وإلى بعض البغضاء لعادت باردة ولصارت فاترة، فإن الفاتر شر من البارد"[1].

وبالطبع أضيف لهؤلاء المضحكين الكثير من النوادر والحكايات الطريفة، ومن الصعب أن نوثق ما صح عنهم بما نسب إليهم، ولكننا – مع ذلك – نرى أن وجودهم عمل على إنعاش الأدب الفكاهى بما أبدعوه من شعر ساخر ونوادر وحكايات طريفة، وأيضًا بما نسب إليهم من ذلك.

وأيضًا من آثار المضحكين الواضحة على النثر الأدبى – فى العصر العباسى خاصة – أن نرى نوادر لأدباء كبار – هم مضحكون فى الوقت نفسه – كأبى الحارث جُمَّيْن[2] وأبى العيناء فيها بلاغة فى التعبير وابتكار فى التصوير، ونعطى أمثلة على ذلك بهذه النماذج القليلة من نوادر لأبى الحارث جمين وأبى العيناء نرى فيها ملامح بلاغتهما.

---

(١) الجاحظ: البخلاء. حقق نصه وعلق عليه: د. طه الحاجرى. القاهرة، دار المعارف، ط٥، ص٧.

(٢) أبو الحارث جمين مدنى، ولاؤه لبيت حمزة بن عبد المطلب، ويظهر من بعض أخباره أن أكبر صلته كانت بمحمد بن يحيى البرمكى وعيسى بن جعفر، وكانا يصلانه بالرشيد أحيانًا.
ونوادره كثيرة جدًّا، وقد ذكر عددًا منها الجاحظ فى كتاب البخلاء، والحصرى القيروانى فى كتاب جمع الجواهر فى الملح والنوادر، وابن قتيبة فى كتاب عيون الأخبار.
وكثير من نوادره تتعلق بالطعام، وكان أبو الحارث من أولئك الذين يتجرؤن بالنادرة فى العراق كأبى دلامة وابن دراج ومن إليهما: يدعوهم السراة إلى مجالسهم، ويحضرون طعامهم، وربما أجزلوا الجائزة لهم. وقد كانوا يعدونهم أداة من أدوات الترف، ومظهرًا من مظاهر السراوة، لا غناء لهم عنه.
انظر: تعليقات الدكتور/ طه الحاجرى فى كتاب البخلاء للجاحظ، ص٢٦١، وانظر أيضًا: البخلاء للجاحظ، ص٧٢، وجمع الجواهر، ٢١٥- ٢١٦.

قال الرشيد لأبى الحارث جمين: "لم لا تدخل على محمد بن يحيى؟ فقال: أدخلُ والله يا أمير المؤمنين، وأنا أكسى من الكعبة، وأخرج وأنا أعرى من الحجر الأسود"[1].

* * *

و"قيل لأبى الحارث جمين: كيف وجه محمد بن يحيى على غدائه؟ قال: أما عيناه فعينا مجنون"[2].

أما أبو العيناء – وهو بالأساس أديب قبل أن يكون مضحكًا – فيظهر فيما ينسب إليه من نوادر وحكايات طريفة سمات بلاغته وفصاحته، وأيضًا قدرته العالية على السخرية، كما نرى فى قوله لشخص: "أعطيتنى برك تفاريق، وعقوقك جملة"[3].

* * *

ودعا أبو العيناء "ضريرًا يعشيه فلم يدع شيئًا إلا أكله. فقال له: يا هذا، دعوتك رحمة فصيرتنى رحمة"[4]. ففى النادرة السابقة يستخدم أبو العيناء الجناس التام، ويثير من خلاله الفكاهة خاصة أنه يأتى ضمن النقد الساخر من الشخص الذى ينتقده أبو العيناء فى هذه النادرة.

---

(١) الآبى: نثر الدر. تحقيق: محمد على قرنة. مراجعة: على محمد البجاوى. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م، ٢٥٠/٣.

(٢) البخلاء للجاحظ، ص٧٢.

(٣) نثر الدر، ٢١١/٣.

(٤) جمع الجواهر، ص٢٨٥.

وهذه نادرة أخرى لأبى العيناء نرى فيها بلاغته وقدرته العالية على التصوير والسخرية فى الوقت نفسه.

"ذم أبو العيناء رجلاً فقال: له ضحك كالبكاء، وتودد كالسباب والافتراء، ونوادر كندب الموتى"[1].

وفى رأيى أن نوادر أبى العيناء بما فيها من تعليقات بليغة وساخرة فى الوقت نفسه تحتاج لدراسة منفردة؛ لأنها تظهر جانبًا مهمًّا من شخصية أبى العيناء، ألا وهو شخصية المضحك اللاذع فى نقده للناس فى عصره، الجرئ المجابه فى تهكمه، وفى الوقت نفسه تظهره البليغ فى تعبيره خلال نقده فى نوادره.

وبالجملة فقد أضاف المضحكون فيما ينسب إليهم من تعليقات فى نوادرهم الكثير للنثر الفنى فى العصر العباسى الأول على وجه الخصوص؛ لأن الكثير منهم كانوا أدباء أو شعراء، فانعكس آثار مواهبهم فى الشعر والنثر على ما نسب إليهم من نوادر فيها أشعارهم أو تعليقاتهم.

وكان من آثار شخصية المضحك على النثر أيضًا أن ظهرت كتب المختارات الأدبية التى تحفل بنوادر هؤلاء المضحكين وحكاياتهم الطريفة ككتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه.

---

(١) أبو حيان التوحيدى: البصائر والذخائر. تحقيق: د. وداد القاضى. بيروت، دار صادر، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ١٤/٦.

وكتبت كتب عن هؤلاء المضحكين – على وجه الخصوص – وتتبعت أخبارهم ونوادرهم وحكاياتهم المضحكة مثل كتاب ابن الجوزى: أخبار الحمقى والمغفلين، وكتابه: أخبار الظرفاء والمتماجنين، وكتابه: أخبار الأذكياء.

بل لقد كتبت كتب فى عهد المتوكل – من قبل بعض هؤلاء المضحكين – عن الفكاهة، ويدل على هذا تلك الرواية.

قال أبو العنبس الصيمرى[1]: "قلت لأبى العبر ونحن فى دار المتوكل: ويحك إيش يحملك على هذا السخف الذى قد ملأت به الأرض خطبًا وشعرًا وأنت أديب ظريف مليح الشعر؟ فقال لى: يا كشخان، أتريد أن أكسد أنا وتنفق أنت؟ أنت أيضًا شاعر فهم متكلم، فلم تركت العلم، وصنعت فى الرقاعة نيفًا وثلاثين كتابًا"[2].

ولم تصلنا كتب أبى العنبس الصيمرى فى الفكاهة، ولكننا يمكن أن نستشف ما جاء فيها من خلال ما ورد عنه من نوادر وأخبار، كحكايته مع حماره التى حكاها للمتوكل فأعجب بها إعجابًا شديدًا، وكافأه مكافأة كبيرة عليها[3].

---

(١) أبو العنبس الصيمرى هو محمد بن إسحاق بن إبراهيم الصيمرى، كان نديمًا للمتوكل والمعتمد العباسيين، وكان أديبًا ظريفًا، عارفًا بالنجوم، شاعرًا هجاءً، وهو من أهل الكوفة، وقبر فيها، ولى قضاء الصميرة فنسب إليها، وله مناظرة مع البحترى، وهجاه أكثر شعراء زمانه، ومن كتبه "أحكام النجوم" و"الرد على المنجمين"، و"الرد على المتطببين" و"كتاب السحاقات والبغائين". وتوفى سنة ٢٧٥هـ، انظر: الأعلام، ٢٨/٦.

(٢) الأصفهانى: الأغانى. تحقيق: على السباعى. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠م، ١٩٨/٢٣.

(٣) انظر فى هذا: المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد. بيروت، المكتبة الإسلامية، د. ت، ٩٢/٤- ٩٣.

ولعل الجاحظ – وهو أديب يهتم بالفكاهة رواية وتأليفًا وتنظيرًا – أن يكون قد دفعه لملء الكثير من كتبه بالنوادر والحكايات الطريفة ما وصل إليه من نوادر هؤلاء المضحكين وحكاياتهم الطريفة.

وكذلك نظن أن دراسات الجاحظ النظرية حول الفكاهة والضحك[1] – وهى متفرقة فى كتبه – كان من أسبابها ما توافر لدى الجاحظ من النوادر والحكايات الطريفة عن هؤلاء المضحكين فى أفعالهم وأقوالهم.

وبالجملة فقد كان أثر المضحكين على الأدب أثرًا كبيرًا، فى الشعر والنثر على السواء، وفى التنظير للفكاهة أيضًا[2].

---

(١) جاء حديث الجاحظ عن الفكاهة كعلم أو كنظرية مفرقًا فى كتبه ورسائله، وقد تحدث عن جوانب مختلفة تخص الفكاهة كعلم، ومن ذلك دفاعه عن الفكاهة كأنها قضية كلامية: انظر فى ذلك: البخلاء، ص٦ - ٧، والحيوان: تحقيق: عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ١/٣٧- ٣٨.

وتحدث عن أهمية الضحك فى جماعة من الناس، وأن الإنسان لا يكون ضحكه وحده كضحكه مع الجماعة، انظر: البخلاء، ص١٢٤.

كذلك تحدّث عن هدفه من ذكر النوادر فى مؤلفاته. انظر فى هذا: الحيوان، ٣/٥.

وتكلم الجاحظ عن لغة النادرة، وأنه يجب أن تروى باللغة أو باللهجة التى قيلت بها؛ حتى تثير الفكاهة، انظر فى هذا: الحيوان، ١/٢٨٢. والبيان والتبيين. تحقيق عبد السلام هارون. بيروت، دار الجيل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت، ١/١٤٥- ١٤٦، والبخلاء، ص٤٠.

وتحدث عن قصور اللغة فى بعض الأحيان عن وصف بعض المواقف الفكاهية، بل يجب – فى رأيه – أن يرى الإنسان هذه المواقف ليدرك كل ما فيها من عناصر فكاهية. انظر فى هذا: البخلاء، ص٥٨.

وتحدث الجاحظ أيضًا عن أنواع النوادر المضحكة ودرجة الإضحاك فيها، انظر فى هذا: البيان والتبيين، ١/١٤٥.

وكذلك تكلم عن ظاهرة إلصاق النوادر بالشخصيات المشهورة بالفكاهة والظرف لتزيد استجابة الناس لها، ولتزيد شهرتها فى الناس. انظر فى هذا البخلاء، ص٨.

(٢) وأظن أن تأثير المضحكين على الأدب شعرًا ونثرًا يحتاج إلى دراسة منفصلة، لدراسة أبعاد هذا التأثير.